الأربعاء 29 يوليو/ تموز 2020 م 8 ذو الحجة 1441 هـ □ العدد 2158 السنة السادسة
Wednesday 29 July 2020

العربي الجديد

هوامش

حريق في سوق البزورية. هذا النبأ الذي استيقظ عليه أهل مدينة دمشق يوم الأحد الماضي، كأنّ البلاد ليس فيها ما يكفي من حرائق الحرب. هنا، زيارة إلى «البزورية»، ووقفة في أزقته

يقع السوق إلى الجنوب من المسجد الأموي (فيسبوك)

سوق البزورية

رائحة الأعشاب التهمتها النيران

أمين العاصي

استفاق الدمشقيون، الأحد الماضي، على نبأ محزن آخر، كان له وقع الصدمة عليهم، حيث التهمت النار جانباً من أعرق وأهم أسواق الشام القديمة، وهو سوق البزورية. عادة ما يختصر النظام السوري أسباب الحرائق التي كثُرت في أحياء دمشق المحيطة بالمسجد الأموي بـ «ماس كهربائي»، بيد أنه يعلم كثير من السوريين أن حريق البزورية، وما سبقه من حرائق في أسواق أخرى، تقف وراءه جهات مرتبطة بإيران، تلجأ إلى ترهيب التجار وأصحاب الدكاكين الذين يرفضون بيع ممتلكاتهم لها.

تؤكد مصادر محلية أن السفارة الإيرانية في دمشق، تنشط منذ عام 2012 للسطو على كثير من المحال التجارية البارزة في المناطق الشهيرة والتاريخية الدمشقية، خاصة تلك القريبة من مقام «رقية» الذي تحول مع المنطقة المحيطة به إلى منطقة نفوذ للمليشيات الإيرانية، لا تسري عليها قوانين النظام السوري. وأشارت المصادر إلى أن أغلب الأسواق والتحف المعمارية التي تتميز بها العاصمة السورية، بما فيها مسجد بني أميّة الكبير «في دائرة الخطر»، في ظل السطوة الإيرانية المتصاعدة في المناطق التي يسيطر عليها النظام السوري «الذي لا يكترث بما يحدث من عمليات تخريب تطاول الأحياء القديمة في العاصمة»، وفق المصادر.

في سوق البزورية، تختلط روائح العطور مع روائح الأعشاب ومختلف أنواع التوابل، إضافة إلى السكاكر والملبّس الشامي والفواكه المجففة، ومختلف أنواع العصائر والحلويات. ويُعتقد أن عمر السوق أكثر من 270 عاما، ما يعني أنه أقدم أسواق العاصمة السورية، ويضم نحو 150 محلاً تجارياً تملكها عائلات دمشقية معروفة، منها عائلة دركل، والخطيب، والرفاعي، والميداني، والعابدين، والعطار، وسواها من العائلات.

عُرف هذا السوق في بداياته بسوق القمح، ومن ثم أصبح اسمه سوق «الدهيناتية»، حيث كانت تصنع فيه مختلف أنواع الدهون، ومن ثم عرف باسم «العطارين»؛ لأنه كانت تباع فيه العطور المستخرجة من الورود الدمشقية، والأعشاب العطرية للعلاج الشعبي، حتى أخذ أخيرا اسمه الراهن «سوق البزورية».

يقع السوق المغطى بساتر قوسي معدني من شماله وحتى جنوبه، إلى الجنوب من المسجد الأموي، ويمتد على نحو كيلومتر من «سوق الصاغة» شمالاً في قلب أحياء دمشق القديمة، إلى سوق «مدحت باشا»، مقابل فتحة حارة «مئذنة الشحم» جنوباً. ويتميز تجار سوق البزورية بدماثة الخلق والطرق المحببة في ترغيب الناس بشراء بضائعهم، حيث لا يكاد يدخل أحد هذا السوق من دون أن يخرج بشيء من توابله، أو فاكهته المجففة، أو الأعشاب الطبية التي تباع حصراً في «البزورية».

ولسوق البزورية بريقه في كل حين، ولكنه يكتسب جلالاً آخر في شهر رمضان، وفي أيام الأعياد المختلفة، إذ يحرص الدمشقيون وسكان العاصمة من المحافظات السورية الأخرى على زيارته للتزود من خيراته. الذهاب إلى سوق البزورية رحلة ممتعة، خاصة إن جاءه الزائر من سوق الحميدية الشهير غرباً، ليصل إلى ساحة المسكيّة التي تقابل الباب الغربي الكبير للمسجد الأموي، ومن ثم تنعطف جنوباً..

يضم سوق البزورية واحدا من أشهر وأهم الخانات في بلاد الشام، وهو «خان أسعد باشا»، الذي حمل اسم والي دمشق العثماني في ذلك الحين، إذ أمر ببنائه في منتصف القرن الثامن عشر، ليكون تحفة معمارية تضاف إلى عشرات التحف المعمارية التي تزدهي بها دمشق. وكانت الأسواق التجارية في عموم سورية، ومنها سوق البزورية، قبلة للسائحين العرب والأجانب قبل أن يبدأ النظام حربه على السوريين في عام 2011، والتي لم يتردد خلالها في إحراق عدة أسواق، لعل أبرزها سوق «المدينة» في مدينة حلب في عام 2012، والذي يعد من أكبر الأسواق في العالم. قد أجاد الشاعر نزار قباني، المولود في حي «مئذنة الشحم»، وعاش طفولته في هذا الحي، في وصف روعة وبهاء سوق «البزورية»، بقوله: «في كل مرة أتسكع في سوق البزورية تخيم فوقي غمامة من عطر الفانيليا تنسيني جورجيو أرماني بحد ذاته.. في دمشق ظواهر غريبة كثيرة تستعصي علي، وما زالت وأظن أن سوق البزورية أكثرها غرابة وأكثرها استعصاء». ويقول في نثريته «الوضوء بماء العشق والياسمين»: أتَغَلْغَلُ في سُوق البُزُوريَّةْ.. مُبْحِراً في سُحُب البَهَارْ.. وغمائِم القرنفُلِ.. والقِرفةِ.. واليانسُونْ.. وبماء العِشْقِ مرَّاتْ».

باختصار

تؤكد مصادر محلية أن السفارة الإيرانية في دمشق، تنشط منذ عام 2012 للسطو على كثير من الأسواق البارزة الدمشقية.

■ ■ ■

عُرف هذا السوق في بداياته بسوق القمح، ومن ثم أصبح اسمه سوق «الدهيناتية»، حيث كانت تصنع فيه مختلف أنواع الدهون، ومن ثم عرف باسم «العطارين».

■ ■ ■

يضم سوق البزورية واحداً من أشهر وأهم الخانات في بلاد الشام، وهو «خان أسعد باشا»، الذي حمل اسم والي دمشق العثماني في ذلك الحين.

وأخيراً

ناجي العلي وثوب عمّتي

سما حسن

عندما تقرّر الاحتفاظ بقطع قديمة في خزانةٍ معتمةٍ في بيتك، فسوف تكتشفُ لاحقًا أن قاسما مشتركا يجمعها. ويبدو أن اكتشاف العلاقة بين الأشياء يأتي متأخِّرًا، وربما عندما تعود الذكريات، بعد سنوات طوال، تكتشف أن هناك علاقة ما، فعلًا. فكأنّي على موعدٍ مع شريطٍ يفتح، مثل خطِّ قطار، يمر به القطار سريعًا، ثم تغلق المحطّة، وهو ما يعرف بـ «المزلقان». وكنّا ننتظر أمامه، مدة طويلة، تحرقنا أشعة الشمس، ونحن مكدّسون في عربة نقل عامة، على أحد خطوط نقل خط إمبابة - القاهرة في مصر.

تفتح الإشارة؛ فتنساب الذكريات، ثم تغلق، وتستمر حياتك، داخل العربة الضيقة التي تكدّس فيها ركّابٌ من كلِّ مكان، ثم ينسابون، كلٌّ إلى وجهته. وهكذا، ما إن أفتح الخزانة المعتمة، حتى تتسلَّل إلى أنفي رائحة ثوب عمّتي، رحمها الله، وهو ثوبٌ فلسطيني مطرَّز، بدأ البِلى يزحف إلى قماشه لقدمه، ولكن خيوط التطريز المختلفة الألوان تمسك به، وتجعله ثقيل الوزن؛ ما يدفعني إلى التساؤل، كلَّ مرة: كيف كانت جدّاتنا يتحمَّلن ارتداءه فوق أجسادهن؟!

في زيارة لبيت عمّتي الراحلة، كانت سيارة أبي الصغيرة تنهب الطريق الزراعي، حين توقف لشراء صحيفة القدس من البائع العجوز، وسط تعليقات أمي المعترضة «خسارة ثمن الجريدة، كلَّ يوم نفس الأخبار». ولكنني تلقفت الجريدة، من يد البائع، وفتحت صفحتها الأولى؛ لأقرأ على مسامعها خبر اغتيال ناجي العلي، في لندن، وأنه يصارع الموت في أحد مستشفياتها. صمتت أمي، ولم تعلِّق، وعلَّق أبي بكلمة واحدة: صادوه .. فيما وجمتُ، وأنا أتذكّر رسومات ناجي وصورة حنظلة، الفتى الذي يدير ظهره للعالم، ويعقد ذراعيه، خلف ظهره، وقد أحببت هذه الحركة منه؛ لأنها حركة أبي في أثناء سيره بتؤدة، ولكنها لدى حنظلة تحمل معاني كثيرة، سُئل عنها ناجي، في أكثر من لقاء، وقال إنه قد قام « بتكتيف» يدي الفتى حنظلة ابن العاشرة؛ دلالة على رفضه المشاركة في حلول التسوية الأميركية، في المنطقة، فحنظلة ثائر، وليس مطبِّعا، وكانت بداية «تكتيف» حنظلة في رسومات ناجي، بعد حرب أكتوبر/ تشرين الأول عام 1973.

لثوب عمّتي رموز ودلالات، وهو يرقد إلى جوار «تعليقة فضية» تجسِّم حنظلة، كانت تنزلق في سلسلة، وأعلقها في صدري، في تلك المرحلة من عمري التي كنت أرى فيها نفسي ثائرة، ومعترضةً على كل شيء. حصلت عليها بصعوبة، وقتها؛ لأن الاحتلال كان يمنع بيع تلك المجسّمات التي تعلَّق على صدور الفتيات والشباب. وما إن بدأت أحداث انتفاضة الحجارة، في العام 1987، وتقريبا بعد اغتيال ناجي العلي بشهور قليلة، حتى طلب مني أبي أن أتخلص منها؛ لكي لا تتسبّب لأهل البيت بمصيبة؛ فالاحتفاظ بمعلَّقات وشعارات عن القضية الفلسطينية تعتبر جريمةً يعاقَب عليها ربُّ البيت، خصوصًا خلال مداهمة طارئة لجنود الاحتلال البيوت الآمنة، إبَّان اشتعال انتفاضة الحجارة. وبقيتْ تلك «التعليقة» مع ثوب عمّتي المطرَّز، والذي يذكِّرني بصبرها أمّا فلسطينية، تحمّلتْ كلَّ شيء؛ من أجل تربية أولادها الكثُر، وعاشت شظف العيش والمعاناة، في مخيَّم اللجوء، في بيتٍ من القرميد، وقبل ذلك في خيمة إبَّان النكبة، وربما كان ثوب عمَّتي المهترئ وسيلة التواصل الاجتماعي غير المعلنة بينها وبين زوجها، فكلّما طفح بها الكيل، وذهبت غاضبةً إلى خيمة أهلها، أرسل زوجها مَن يتتبّع أحوالها؛ فيخبرونه أنها ترتدي الثوب الفلّاحي المطرَّز القديم البالي المخصص لأشغال البيت. ولا تهتم بنظافته، ولا بهندام نفسها، بتصفيف جدائلها، وتمسيد مقدِّمة رأسها؛ فيعرف أنها حزينة على فراقه؛ فيرسل من يعيدها إلى خيمتها، وظِل زوجها.

> مات ناجي العلي مقتولًا، وبقيتْ تلك الأيقونة، وهي حنظلة، وماتت عمّتي، وظلّ ثوبها

مات ناجي العلي مقتولًا، وبقيتْ تلك الأيقونة، وهي حنظلة، وماتت عمّتي، وظلّ ثوبها، وتَصادف أن نحتفل بذكرى اغتيال ناجي العلي، مع يوم الزِّي الفلسطيني؛ فألتفتُ إلى خزانة معتمة، تلك الخزانة التي تحكي حكايات كفاح ونضال اختصرتْها عمَّتي بثوبٍ طرَّزته بالصبر والدموع؛ فتهالك ووصل لخزانة جدَّتي؛ ثم لخزانتي، واختصرها ناجي بأربعين ألف رسمة ظلّت باقية، حتى اليوم.